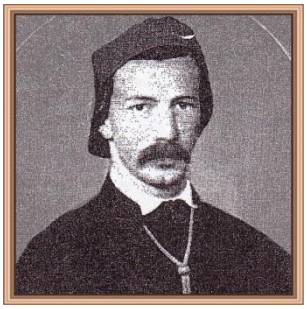

سيرة الشيخ ابراهيم اليازجي وأبرز منجزاته[1]

(١٨٤٧-١٩٠٦)

وُلِدَ، رحمه الله، في ٢ مارس سنة ١٨٤٧ في بيروت ونشأ فيها، وتلقّى مبادئ العلم على أبيه اليازجي الكبير، ولاسيّما أُصول اللغة وقواعدها. على أنّ أكثر ما اكتسبه من العلوم واللغات إنّما قرأه على نفسه، واكتسبه بجدّه وذكائه. وقد ورث الخيال الشعريّ عن أبيه، فنظم الشعر وهو صبيٌّ، وزاول النظم في شبابه. فلما قارب الكهولة عدل عنه إلى الاشتغال بسواه، إلّا ما قد ينظمه لحادث أو باعث. وكانت قد اشتُهرت منزلته في جودة النظم، فتقاضى إليه الأدباء يستفتونه أو يستشيرونه أو يحكِّمونه في قصيدة أو مسألة. ولم يكن مجلسه يخلو من بحث أدبيّ أو شعريّ، فتُحْدِق به حلقة من أدباء بيروت ولبنان، وكلّهم آذان تسمع ما يتلوه عليهم، أو يُصْدِرُ حكمه فيه من شعر أو نثر. غير ما كان يَرِدُ عليه، في هذا الشأن، من رسائل الشعراء وغيرهم، ممّا كاد يستغرق وقته ويشغله عن سواه، فصمّم على ترك الشعر، وتفرّغ لدرس اللغة، وآدابها، وعلومها. فعكف على المطالعة، فدرس الفقه الحنفيّ على الشيخ محيي الدين اليافي، أحد مشاهير أئمّة بيروت.

وكانت الصحافة البيروتيّة في أوائل نهضتها، ومن جرائدها يومئذ "النجاح"، فَعُهِدَ إليه بتحريرها سنة ١٨٧٢ فظهر اقتداره على الإنشاء العصريّ ممّا لم يعهد الناس مثله في المرحوم أبيه. فضلًا عن تمكّنه من قواعد اللغة ومعاني ألفاظها. وكان المرْسَلون الأميركان، لما أرادو نقل التوراة إلى اللسان العربيّ في أواسط القرن الماضي، استعانوا في تنقيح مسوّداتها وضبط عبارتها من حيث اللغة والإعراب، بالمرحومين الشيخ ناصيف والمعلّم بطرس البستاني، ثمّ بالشيخ يوسف الأسير. ولكنّهم التزموا الترجمة الحرفيّة، ولم يبيحوا للمصحّحين التصرّف بالأسلوب، فجاءت عبارة ترجمتهم ضعيفة. ثمّ عَمَدَ الأباء اليسوعيّون إلى ترجمة الكتاب المقدّس ترجمة كاثوليكيّة، فاستعانوا بالشيخ إبراهيم وفوّضوا إليه تنقيح العبارة من حيث الإنشاء، فضلًا عن الضبط النحويّ واللغويّ. فقضى في ذلك، وفي تصحيح كتب أخرى، تسع سنين. وقد درس اللغة العبرانيّة على نفسه لتطبيق عبارة التعريب على الأصل، فجاءت ترجمة اليسوعيّين أصحّ ترجمات التوراة العربيّة لغة، وأفصحها عبارة، وأجزلها أسلوبًا. ويصدق ذلك، على الخصوص، في العهد القديم. أمّا العهد الجديد فقد أخبرنا، رحمه الله، أنّهم لم يطلقوا يده في تنقيحه كما يشاء. وكان، في أثناء ذلك وبعده، يعلّم المعاني والبيان وآداب اللغة في المدرسة البطريركيّة، فتخرّج عليه جماعة من أذكياء الشبّان، إشتُهر بعضهم بالصحافة، وبعضهم بالتجارة أو الإدارة. وتمّم بعض ما تركه والده غير كامل من المؤلّفات، أو الشروح، وأشهرها ديوان المتنبّي. وكان والده قد علّق على بعض أبيات المتنبّي شرحًا موجَزًا، فعكف هو على إتمامه سنة ١٨٨٢، فأتمّه في أربع سنوات شرحًا وطبعًا، وهو مشهور بضبطه، وما ألحقه به في النقد الشعريّ.

---

[1] نثبت هذه السيرة استنادًا إلى ما ورد في: زيدان، جرجي، "المُنْشِئون وكُتّاب الجرائد، الشيخ إبراهيم اليازجي (وُلد سنة ١٨٤٧ وتوفّي سنة ١٩٠٦)، ترجمة حاله" في **تراجم مشاهير الشرق في القرن التاسع عشر**، الجزء الثاني، الطبعة الثانية، مصر، مطبعة الهلال بالفجالة، ١٩١١، ص ١١٩-١٢٦، ١٢٩-١٣٠، ١٣٢-١٣٦.

وكانت الصحافة السوريّة قد نمَتْ، وظهرت مجلّة الجِنان، ثمّ مجلّة المقتطف، وتحدّث بهما [الأدباء] وبما استفادوه منهما، فأحبّ الشيخ الرجوع إلى الصحافة العلميّة. وكان الدكتور "بوسط"، الجرّاح الشهير، قد أنشأ في بيروت مجلّة طبيّة سمّاها "الطبيب"، فاتّحد الشيخ مع صديقيه، الدكتور بشاره زلزل والدكتور خليل سعاده نزيل القاهرة، وأصدروا "الطبيب" معًا سنة ١٨٨٤. نشر فيه الشيخ، فضلًا عمّا كان يكتبه زميلاه من المقالات الطبيّة والعلميّة، مقالات لغويّة وأدبيّة، إنشاؤها من الطبقة الأولى. وحُجِبَ الطبيب عن قرّائه في السنة التالية. ثمّ أستأنف إصداره الدكتور اسكندر بك البارودي، ولا يزال يصدر في بيروت حتّى الآن.

ترك الشيخ تحرير الطبيب، ونفسه تتطلّب الشهرة الصحافيّة. ورأى الآداب العربيّة والصحافة قد تحوّلتا إلى مصر بما أُطْلِق فيها من حرّيّة الأقلام والأقوال، فعزم على المجيء إليها لإنشاء مطبعة ومجلّة علميّة. واتّفق على ذلك مع الدكتور زلزل، شريكه في "الطبيب"، فبرح الشيخ مدينة بيروت سنة ١٨٩٤، وعرّج ببلاد الإفرنج، أعدّ بها بعض ما يقتضيه مشروعهم من الآلات ونحوها. ثمّ جاء القاهرة، وأنشأ مع زميله المشار إليه مطبعة البيان، وأصدر مجلّة البيان سنة ١٨٩٧، ثمّ حجباها بعد سنة وافترقا. واستقلّ الشيخ بإنشاء "الضياء" سنة ١٨٩٨، وهي مجلّة علميّة أدبيّة صحيّة صناعيّة، اشتُهرت بمتانة إنشائها وفصاحة عبارتها وبلاغة أسلوبها كما سنبيّنه. وما زالت تصدر حتّى حال الأجل دون إصدارها بعد انقضاء عامها الثامن. وكان، رحمه الله، قد أُصيبَ بداء الروماتزم في أواخر الصيف الماضي بعد تحرير آخر أعدادها، فلما استبطأ الشفاء أعلن توقيفها ريثما يَبِلُّ من الداء، وما علم أنّه الداء الأخير ففاضت روحه في المِطْرِيّة، بعد ظهر ٢٨ دسمبر سنة ١٩٠٦، وهو في الستين من عمره، ولم يتزوّج. ولم يبقَ من بيت اليازجي إلا الشيخ حبيب ابن أخيه الشيخ خليل. فاحتفل أصدقاؤه ومريدوه بدفنه في اليوم التالي احتفالًا يليق بمنزلته. فحملوا جثّته بِقَطْرٍ خاصّ من المِطْرِيَّة إلى القاهرة. ومشى في جنازته من المحطّة جمهور كبير من خاصّة الأدباء والوجهاء، وأوصوا أن يرجئوا التأبين إلى يوم آخر يُعَيِّنُ في وقت آخر. ثمّ احتفل بتأبينه بعض المحافل الماسونيّة بمصر والإسكندريّة، فضلًا عن حفلات التأبين وغيرها. وأمر سموّ الخديوي "سر تشريفاتي" سموّه أن يكتب إلى الشيخ حبيب كتاب تعزية هذا نصّه:

"جناب الفاضل الشيخ حبيب اليازجي

لمّا علم الجناب الخديوي العالي بعظيم رُزْءِ اللغة العربيّة وآدابها لانتقال العلّامة الشيخ إبراهيم اليازجي من هذه الديار الفانية إلى الدار الباقية، أَظْهَرَ مزيد أسفه على انقضاء تلك الحياة الطيّبة الحافلة بجلائل الخِدَمِ للعلوم العربيّة في القطرين مصر والشام، وأمرني سموّه الفخيم أن أُبَلِّغَ جنابكم، وسائر أعضاء الأسرة اليازجيّة، تعزيته السامية. وإنّي اشترك مع قرّاء العربيّة في تقديم واجب التعزية إلى حضراتكم".

سر تشريفاتي الخديوي
أحمد زكي

والفقيد، رحمه الله، حائز على الوسام العثمانيّ من جلالة السلطان، وعلى نوط العلوم والفنون من جلالة ملك أسوج ونروج، وانتدبته كلّ من الجمعيّة الفلكيّة في باريس وفي إنفرس، والجمعيّة الفلكيّة الجوّيّة في السلفادور، أن ينتظم في عضويّتها.

أخلاقه وصفاته

كان ربع القامة، نحيف البنية، عصبيّ المزاج، حادّ البصر، زكيّ الفوائد، سريع الخاطر، حاضر الذهن، لطيف المحاضرة، حلو المفاكهة، لا يُمَلُّ مجلسه، يطرب للنكتة الأدبيّة ويضحك لها. وكان، مع ذلك، شديد الحرص على كرامته، لا يحتمل مسّها في جدّ أو هزل، تلميحًا ولا تصريحًا. وكان سريع الانتباه لِمَا يتخلّل أحاديث المجالس من الإشارات الأدبيّة. وكان متعفّفًا بطعامه وشرابه، ولولا ذلك ما صبر على معاناة صناعة القلم بضعة وأربعين عامًا مع نحافة بُنْيَتِهِ. قضى أعوامه الأخيرة يقتصر، في عشائه، على كأس من اللبن خوف التثقيل على معدته. وانّما العمدة في الغذاء على أكلة الغداء، ولم يكن نَهِمًا. وأمّا في الصباح فيتناول طعامًا خفيفًا، ويعكف على العمل. فإذا تغدّى الظهر، شرب قهوته، ودخّن شيشته ونام. ثمّ ينهض ويقضي بقيّة النهار في الراحة، أو في عمل لا يُتعبه، ويخرج لترويح النفس في بعض الأندية يلاعب بعض معارفه بالنرد على سبيل التسلية، أو يقضي ذلك الوقت بالمباسطة والمفاكهة. فإذا آن العشاء عاد إلى منزله، فيتناول اللبن ويستأنف العمل. وكان مولعًا بتدخين الشيشة في أثناء الكتابة، كما كان والده مولعًا بالقهوة، وتدخين التبغ في ذلك الحين.

وكان عفيف النفس، كثير الإباء، ظاهر الأَنَفَة إلى حدّ الترفّع، ولاسيّما في ما يتعلّق بالارتزاق. يعدُّ مجاملة الناس في سبيل الكسب تملّقًا، وكلّما قلّ ماله زادت أَنَفته، وعظم إباؤه. وكثيرًا ما أراد أصدقاؤه إقناعه أنّ سُنّة الارتزاق تقضي بمجاملة الناس والتقرّب من كبارهم بالحُسْنَى. فربّما أطاع ناصحه برهة، ثمّ يعرض له خاطر، فيعود إلى الإباء. ولولا ذلك لعاش في سَعَة وراحة، ولكنّ القناعة كانت من أكبر أسباب سعادته.

على أنّه كان يشتعل بالقلم التماسًا لتلك اللذّة التي كثيرًا ما أغوت أصحاب القرائح، واستنزفت قواهم، فعاشوا فقراء، وماتوا أعلاء. ولو أراد الشيخ مجرّد الارتزاق، لكان له ممّا فُطِرَ عليه من دقّة الصناعة اليدويّة خير سبيل. بل لم يكن يعدم منصبًا في بعض مصالح الحكومة، وقد نُدِبَ أن يكون قائمقام على مدينة زحلة من لبنان سنة ١٨٨٢، فلم يقبل.

ومن إبائه وكرم أخلاقه أنّه كان صادقًا في معاملته على اختلاف وجوهها، لا يحلف ولا يخلف. أمينًا في ما ينقله أو يقتسبه منَ الآراء أوِ الأقوال، ينسب الفضل إلى صاحبه. وكان عكس ذلك في ما يفعله هو مع الآخرين، من تصحيح مقالة أو تنقيح عبارة، فإنّه كان شديد الإنكار لذلك. ولكنّ ديباجته كانت تنمُّ عليه لظهور أسلوبه من خلال السطور.

وكان بِرًّا بأبيه، وقد خدم اسمه وزاد في شهرته بما أَتَمَّهُ من آثاره أو شَرَحَهُ من كتبه، فأنفق في سبيل ذلك جانبًا كبيرًا من وقته، وأتمّ شرح المتنبّي أو هو شرحه كلّه، فنسب الشرح إلى والده، واستبقى لنفسه فضل التتميم.

قرائحه ومواهبه

أظْهَرُ قرائحه الإتقان الفنّيّ. فإنّه كان متأنّقًا في إتقان ما يتعاطاه من صناعة أو أدب أو شعر، سواء اصطنعه بيده أو أنشأه بقلمه، أو نظمه بقريحته، بما يعبّرعنه الإفرنج بقولهم Artist. فكنْتَ ترى التأنّق والإتقان ظاهرَين في كلّ عمل يعمله، حتّى في لباسه وجلوسه ومشيه وكلامه وطعامه. وكلّ ذلك فرع من تأنّقه في الصناعة اليدويّة. فكان حفّارًا ماهرًا، ومصوِّرًا متقِنًا. ظهر ميله إلى ذلك منذ حداثته. حدّثنا صديقنا المستر إدوار قانْدَيْك نجل أستاذنا الدكتور قانْدَيْك أنّه عرف الشيخ الفقيد منذ نيّف وأربعين سنة، إذ كان يتردّد على مطبعة الأمريكان في بيروت، وإدارتها يومئذ بيد الدكتور قانْدَيْك، وكانت للشيخ ناصيف علاقة حسنة بالأمريكان من التعليم بمدارسهم والتصحيح في مطبعتهم. قال صديقنا المشار إليه إنّه كان يُلاحِظ في الشيخ إبراهيم، من ذلك

الحين، ميلًا خصوصيًّا لصناعة الحفر، وكثيرًا ما كان يحفر الأختام على سبيل الغيَّة[1]، ثمّ حفر الصور والنقوش. وخطر له يومًا أن يصطنع روزنامة عربيّة تُعلَّق على الحائط من قبيل الروزنامات الشائعة، ولم تكن معروفة يومئذ بالعربيّة. فاستأذن الدكتور ڤانْدَيْك في استخدام بعض أدوات المطبعة لحفر الأحرف والأشكال اللازمة لهذا العمل. فأمر رئيس العمّال في ذلك العهد، موسى عطا، أن لا يمنعه شيئًا يحتاج إليه في هذا السبيل. فتأنّق الشيخ في رسم حروف الروزنامة وأرقامها حتّى أتمّها على أجمل ما يكون، وهي أوّل روزنامة عربيّة من هذا النوع.

على أنّ تأنّقه ظهر أوّلاً في خطّ يده، فكان جميل الخطّ من حداثته، وظلّ خطّه جميلًا إلى آخر أيّامه، وقاعدته فارسيّة. والذين يقرأون رسالة بخطّه لا يكون إعجابهم بجمال ذلك الخطّ أقلّ من إعجابهم ببلاغة أسلوبه. ومن هذا القبيل تأنّقه في التصوير باليد، حتّى صوّر نفسه عن المرآة صورة ناطقة رأيناها معلّقة في منزله. وأهمّ ما نجم من ثمار هذه القريحة اصطناع الحروف الحديثة التي سنذكرها في جملة آثاره.

إنشاؤه

ومن قرائحه اقتداره الغريب على الإنشاء المرْسَل، مع سلامة ذوقه في انتقاء الألفاظ. وأسلوب عبارته جمع بين المتانة والبلاغة والسهولة، يشبه أسلوب أبن المفقّع شبهًا إجماليًّا، ولكنّه من أكثر وجوهه خاصّ بالشيخ. على أنّ إنشاء ابن المفقّع لم يصل إلينا كما كتبه صاحبه، ولكنّه جاءنا بعد أنْ هذّبته أقلام المنشئين، ونقّحته قرائح اللغويّين زهاء اثني عشر قرنًا. أمّا الشيخ فلم يمسّ عبارته سواه، ناهيك بما يعترض الكاتب اليوم من المعاني الجديدة التي لم يعرفها القدماء، وليس في المعجمات لفظ يدلّ عليها ممّا يقف عثرة في طريق المنشئين.

أمّا فقيدنا اليازجي فكان يتخطّى هذه العقبات على أهون سبيل، فجاءت عبارته خالية من غريب اللفظ ووحشيّ التركيب. وقد يأتي باللفظ الغريب فيضعه موضعًا يجلعه مألوفًا، فلا يَمجُّه السمع، ولا يُنْكِرُه الفهم. فكان أسلوبه بليغًا بلا تقعّر أو تعقيد، سهلًا بلا ضعف أو ركاكة، متسلسلًا متناسبًا متناسقًا، يطابق ما قدّمناه من توخّيه التأنق والإتقان في كلّ شيء. ورغبته في الإتقان حملته على التأنّي في نشر ما يكتبه، فكان لا يرسل المقالة إلى المطبعة إلّا بعد تنقيحها وتهذيبها، ثمّ يكتبها بحرف واضح جليّ كأنّه سلاسل الذهب، حذرًا من الوقوع في الخطإ. فآلَ ذلك إلى إبطائه في إخراج بنات أفكاره، وقلّل مقدار ما كان يُرجى الحصول عليه من ثمار علمه ودرسه.

وممّا حمله على المبالغة في التأنّي أنّه كان شديد الوطأة في انتقاد ما يعرض له من الغلط اللغويّ في ما يقرأه من الصحف أو الكتب– وذلك طبيعيّ في مَن يخصِّص بحثه في فرع من فروع العلم يستقصيه، ويدرس دقائقه، فيكثر ما يقع عليه نظره من الغلط في ما يكتبه سواه في ذلك الفرع، فلا يصبر على السكوت عنه، ولا سيّما إذا كان عصبيّ المزاج، مطبوعًا على التأنّق والإتقان مثل فقيدنا. فالانحراف عن الصواب كان يؤلمه، ولا يشفي ألمه غير النقد. ويمتاز نقده بشدّة اللهجة، بما يتخلّله من قوارص الكَلِم، لا يراعي في ذلك صداقة ولا عهدًا. وسبب تلك الشّدّة، على الغالب، غيرته على اللغة، وإخلاصه في خدمتها. فلمّا كتب "أغلاط المولّدين" لم يستثنِ والده ولا نفسه. لأنّه كان يرى الغلط اللغويّ أو النحويّ من أكبر السيّئات، ويرى السلامة منهما من أكبر الحسنات. ولذلك كان يثني على شعر ابن الفارض، ويُعْجَبُ بشعر المتنبّي على الخصوص لقلّة ذاك الغلط فيهما. وربّما احتقر

[1] الغيَّة: الغواية.

شعرَ شاعر مطبوع، أو مقالة عالِم كبير إذا رأى فيها غلطًا لغويًّا أو نحويًّا. فكان يبالغ في تنقيح ما يكتبه، يتأنّق في اتقانه خوفًا من الانتقاد. ولعلّه تنبّه لذلك، على الخصوص، منذ أخذ في الدفاع عن والده لما انتقده الشيخ أحمد فارس، وشدّدَ النكير عليه. وكان الشيخ إبراهيم في إبّان شبابه، فأجاد في الدفاع، وتعوّد الحذر من الخطإ بالمراجعة والتنقيح من ذلك الحين. فاعتبر مع سَعَة علمه بمفردات اللغة وجزالة أسلوبه كم تكون لغته صحيحة وعبارته بليغة فصيحة. حتّى أصبح استعماله حُجَّة، وإنشاؤه قاعدة، فلا عجب إذا دعوناه حُجَّة اللغة وإمام الإنشاء. وأكثر ما يكتبهُ مُرسَلٌ سَهْلٌ، وإذا سجَّع فلا تجد في تسجيعه تكلّفًا. وإليك أمثلة من ذلك وهو من قبيل الشعر المنثور : [...]. وقال من مقالة في وَداع القرن التاسع عشر:

"ودّعنا القرن التاسع عشر كما يُودّع المرء يومه عند انقضائه. وقد تذَكَّرَ ما لقيَ بين صباحه ومسائه. وما تقلّب عليه من حالي قدره وصفائه، ثمّ استشفّ من خلال ليله المقبل وميض صباح الغد باسمًا عن ثغور الآمال، مبشِّرًا بما فاته في يومه من الغبطة ونعمة البال. فبات يَعِدُ نفسه المواعيد، ويرى كلّ بعيد من الأوطار أقرب إليه من حبل الوريد . وقد ذُهِلَ أكثرنا عن أنّه يودع شطرًا من دهره. وقد يكون من بعضنا أطيب شطرَي عمره. فإذا التفَتَ إلى خلفه رأى خيال نشأته وشبابه، وتمثَّلَتْ له أوقات لذّته ومجالس أترابه. والصفحة التي ارتسم عليها تاريخ ميلاده ودوّن فيه تذكار أبهج أعياده. فحنّ إلى أيّامه السوابق. حنين المحبّ المفارِق وقد حِيْلَ بينه وبينها، وطُوِيَتْ عليها صحيفة الفناء. وخُتِمَ عليها بطابَع الأبد فهي هناك إلى يوم اللقاء".

شعره

وقد رأيْتَ أنّه نظم الشعر في شبابه، وقَعَدَ عنه في كهولته. على أنّ شاعريّته ظاهرة في ما ظهر من شعره. وبين منظوماته ما جرى على ألسنة القوم مجرى الأمثال مع رغبته في كتمانه، إذ جمعه في كتاب بخطّ يده، وضنّ على الناس بنشره، وهو لا يزال باقيًا كما تركه. ومن أشهر شعره قصيدته السينيّة التي مطلعها:

دَعْ مجلسَ الغِيْدِ الأوانس وهوى لواحظها النواعس

وأختها التي مطلعها:

تنبّهوا واستفيقوا أيّها العربُ فقد طمى الخَطْبُ حتّى غاصَتِ الرُكَبُ

والقصيدتان مهيجتان اقتضتهما بعض الأحوال السياسيّة في سوريا من التحريض على النهوض. ولعلّ الفقيد حُمِلَ على نظمهما بإشارة جماعة أو أمر رجل كبير، فجاء نظمهما بليغًا .

ومن قوله في النسيب والغزل:

ما مرَّ ذِكْرُكَ خاطرًا في خاطري إلّا استباح الشوقُ هَتْكَ سرائري
بَلَغَ الهوى منّي فإنْ أحببْتَ صِلْ أو لا، فَدَتْكَ حشاشتي ونواظري

ومن قوله في الحِكَم:

وإنّما نحنُ في دار إذا اعتُبِرَتْ ليسَتْ سوى مأتمٍ ناحت به البشرُ
في كلّ يوم أناسٌ فوقَها فُجعوا على أناسٍ طَوَتْهم تحتَها الحُفَرُ

وممّا جرى مجرى الأمثال، ويصحُّ أن يُكْتَب بماء الذهب، بيتان قالهما في معرض ردٍّ على أحمد فارس الشدياق، لما انتقد كُتُبَ والده، وشدّد الطعنَ عليه، فقال الشيخ إبراهيم:

ليسَ الوقيعةَ من شأني فإنْ عَرَضَتْ أعرضْتُ عنها بوجهٍ بالحياءِ ندي

إنّيَ أضنُّ بعرضي أن يَلمَّ به	غيري فهل اتولّى خرقه بيدي

ومِن نظمه ليُكتب على عودٍ:

وعودٌ صفا الندمان قدمًا بظلّه	وما برَحْت تصفو إليه المجالسُ
تعشَّقَهُ طيرُ الأراكةِ أخضرًا	وحنّ إليه ريشُهُ وهو يابسُ

ومن نكاته الشعرية:

تعجَّبَ قومٌ من تأخُّر حالِنا	ولا عجبٌ في حالنا إنْ تأخَّرا
فمذ أصبحَتْ أذنابُنا وهي أرؤُوسٌ	غَدَوْنا بحكمِ الطبعِ نمشي إلى الورا

وكانت له قريحة في الرياضات، واطّلاع واسعَ في عَلم الفلك اتصلَتْ بسببه مخابراتٌ بينه وبين بعض كبار الفلكيّين الفرنساويّين. واشتغل في حلّ المشكلة الرياضيّة المشهورة، وهي قسمة الدائرة إلى سبعة أقسام. وتوصّل، قبل وفاته ببضع سنين، إلى حلّ يقرب من الصواب كثيرًا بعث به إلى أكاديميّة العلم في باريس ولا نعلم ما صار إليه أمره. وكان عارفًا اللغة الفرنساويّة، وله إلمام بالعبريّة والسريانيّة، ومشاركة حسنة في العلوم الطبيعيّة.

أعماله وآثاره

نظرًا لما قدّمناه من طبعه في التأنّق والإتقان، وتوخّيه التأنّي والتدقيق، فقد جاءت ثمار قرائحه أقلّ مقدارًا مما كان يُرجى من مثله كما قدّمنا، فضلًا عن انصراف ذهنه في شبابه إلى الاشتغال بالحفر والرسم. على أنّه خدم اللغة العربيّة من هذا الطريق خدمة ذات بال باصطناع حروف الطباعة العربيّة في بيروت. وذلك أنّ الطباعة بالحروف الإفرنجيّة لم تَكَدْ تظهر في أوربّا بأواسط القرن الخامس عشر حتّى اهتمّ أصحابها هناك باصطناع الحروف العربيّة، فاصطنعوا حروفًا طبعوا بها كتبًا بالبندقيّة ورومية وباريس ولندرا [ولندن] وأكسفورد وغيرها، ولكلٍّ منها تقريبًا شكل خاصّ وإنْ تشابهت على الإجمال. ثمّ ظهرت الطباعة العربيّة في الآستانة، وحرفها يُعْرَف بالحرف الإسلامبوليّ، ويشبه القاعدة التي تقرأها في هذه الصفحة. وفي أوائل القرن الثامن عشر ظهرت الطباعة في سوريا نقلًا عن حروف رومية. ثمّ جاء المرسَلون الأميركان إلى سوريا في أوائل القرن الماضي ولهم مطبعة عربيّة في مالطة أسّسوها سنة ١٨٢٢، وحروفها من حروف مطابع لندن، وطبعوا بها كتبًا بعناية المرحوم الشيخ أحمد فارس. ثمّ نقلوها إلى بيروت سنة ١٨٣٤. وبعد انتقالها بأربع سنين اهتمّ مديرها يومئذ، المرحوم عالي سميث، باصطناع حروف جديدة، فاستخدم أحد كَتَبَةِ الآستانة، فكتب له حروفًا جميلة سبكها في لايبسك [Leipzig]، وهي الحروف الأميركانيّة المشهوَرة.

ولكنّ القاعدة الأميركانيّة، على جمالها ورونقها، كانت كثيرة النفقة في اصطناعها لكثرة أشكالها. والقاعدة الإسلامبوليّة تفضلها من هذا القبيل، لكنّها تقلّ عنها من جهات أخرى. فعني الشيخ صاحب الترجمة سنة ١٨٨٦ بصنع قاعدة جديدة بجمع بها حسنات الحرفين، وهي القاعدة المعروفة بحرف سركيس، لأنّها تُسْبَكُ في مسبك خليل أفندي سركيس صاحب لسان الحال في بيروت. وهي القاعدة الشائعة الآن في أكثر المطابع العربيّة في سورية ومصر وأميركا. واصطناع هذه الحروف يحتاج إلى دقّة ومهارة لا يعرف مقدارهما إلّا من يعاني هذه الصناعة. لأنّ الحرف لا يتمثّل للطبع إلّا بعد أن يُحْفَر على قضيب من الفولاذ حفرًا دقيقًا، ويقال له باصطلاح الطباعة "الأب"، ثمّ يُضْرَبُ على النحاس ضربًا حتّى يُطْبَعَ غائرًا في النحاس، ويسمّونه حينئذٍ "الأمّ"، وعلى هذه الأمّ يصبّون الرصاص، فيخرج الحرف المعروف في المطابع– فالشيخ كان يصطنع الأب من الفولاذ، ويضربه على الأمّ النحاسيّة، واصطنع هذا الحرف عدة أقيسة. ولما جاء القاهرة صنع حرفًا على قياس متوسّط بين الحروف الكبرى والصغرى يُعْرَف بحرف (بنط ٢٠)، وقد اتّخذته مسابك القاهرة، واصطنعوا له قوالب، وشاع استعماله في مطابعها، وبه طبعنا هذه الترجمة.

وأدْخَل في الطباعة العربيّة، بعد قدومه مصر، صورًا للحركات الإفرنجيّة يحتاج إليها المعرّبون في التعبير عن الحركات الخاصّة بها التي لا مقابل لها في العربيّة. ولما أرادت الحكومة المصريّة صنع حروف مطبعة بولاق سنة ١٩٠٣ على قاعدة مختصَرَة مفيدة، كانت الأبصار متجهة إلى الشيخ لأنّه أقدر من يستطيع ذلك بالدقّة والرونق، ولو فَوَّضَتْ إليه هذا العمل لأحسنت صنعًا واستثمرت قريحته ثمرًا نافعًا للغة العربيّة على الإجمال. أمّا آداب اللغة العربيّة فقد خدمها الشيخ خِدَمًا ذات بال بما ألّفه أو نقّحه أو انتقده أو وضعه من المصطلحات الجديدة. [...].

ومن آثار علمه أنّه انتقى ألفاظًا اصطلاحيّة لما حدث من المعاني العلميّة بنقل العلوم الحديثة إلى اللغة العربيّة بما عُرِفَ به من سلامة الذوق في اختيار الألفاظ، وهاكَ أمثلة من ذلك مرتّبة على أحرف الهجاءِ مع أصولها الفرنساويّة:

Cravate	الأُرْبَة
Assurance	الاستعهاد
Plombagine	الأُسْرُب
bacilles	الأنبوبيّات
Dot	البائنة[1]
Milieu	البيئَة
Phosphorescence	التألّق
Balcon	الجناح
Phonograph	الحاكي
Soupe	الحساء
Myopie	الحسر
Cocher	الحوذيّ
Bicyclete	الدرّاجة
Ecran	الدريئة
Microcoque	الذُّرَيْرات
Bactéries	الراجبيّات
Rhumastisme	الرَثْيَة
torpille	الرعاد
Tache (du soleil)	السُّفَع
Poratonnerie	الشاري
Chimpanzé	الشبنزي
Police	الشحنة

[1] الجهاز أو المهر.

Armoiries	الشعار
Brosse	الشَّعْرِيَّة
Fuseau	الضلع
Colonie	الطارئة
Gutta-percha	الطَبْرَخى[1]
Vernis	الطلاء
Cadre	الكِفاف
Valve	اللهاة
Vis	اللولب
Tragédie	المأساة
Vibrions	المتمعّجات
Révue	المجلّة
Granit	المحَبَّب
Imperméable	المصَلَّد
Buffet	المقْصِف
Guillotine	المقْصَلة
Douche	المنْضَحَة
Ressort	النابض

ومن هذا القبيل وضعه "النَّوام" لمرض النوم الذي حدث في أفريقيا مؤخّرًا، و"المِداد" القلم الحبر المشهور، وغير ذلك ممّا يصعب حصره.

[1] مادّة شبيهة بالمطّاط تُستَخرَج من بعض الأشجار]